القرآن والمعجم الصوفي

بقلم : عبد العزيز بنعبد الله
أستاذ بجامعة محمد الخامس
ودار الحديث الحسنية

ان استكناه واستقراء المصطلحات الصوفية يستلزم جرد كل الالفاظ والتعابير المدرجة في مصنفات الصوفية منذ فجر الاسلام ولا يخفى أن هذه المصطلحات التي يرتكز الكثير منها على الوجدان والذوق تتسم غالبا بنوع من الغموض على غير ممارسيها فلذلك اختلفت الآراء في تحديد فحوى ومدى كثير من المفردات تبعا للعصور والبيئات ولنوع الثقافة التي تطبع بميسمها الخاص هذا الصوفي أو ذاك فالصوفي الفقيه ينفعل للمؤثرات القانونية ويتسم أسلوبه وعقليته بمقتضياتها وكذلك المحدث والنحوي والفيلسوف كل ينساق مع لوازم البوتقة التي انصهرت فيها نفسه .

ولنضرب مثلا بلفظة التصوف نفسها التي تعددت تعاريفها فوصلت الالف (1) فاذا كان الفكر الصوفي واحدا في حقيقته متناسقا نوعا ما في مغازيه وأبعاده فان للشخصية أثرها القوي في تكييف هذه المقومات .

فمن الصوفية من غلبت عليه معطيات الاشراق كالسهروردي ومنهم من تجاذبته العوامل الفلسفية والدينية كالغزالي ومنهم من شطح كأبي يزيد البسطامي والحلاج ومنهم من حاول تقعيد التصوف على رسوم الاصلين (الكتاب والسنة) كالجنيد وابن طالب المكي ولكل مدرسته ولكل مدرسة اتجاهاتها في تقدير المفاهيم وتحديد المدركات .

استلهم الكثير من الصوفية في الصدر الاول محكم القرآن وصريح الحديث فاصطبغت مراميهم بطابع السنية بينما تفاعلت المؤثرات لدى آخرين باندراج عناصر دخيلة كالاسرائيليات والهلنستيات (كآراء مدرسة الاسكندرية) فبرزت معالم حدت البعض الى ارجاع التصوف الى أصل هندي أو قبالي يهودي فلهذا أكد ماسينيون فكرة الحاق التصوف بمنبع اسلامي اقتبسوا من القرآن اضطروا هم انفسهم الى تأويل المتشابه بل وتوجيه الصريح طبقا اما لروح الآية أو للمأثور المشكوك في صحته .

وانصب هذا التأثير على المصطلح الصوفي فكان القرآن المصدر الاول وضع لمعجم الصوفية كلمات جوهرية تفرعت عن بعضها كثير من الاشتقاقات فقد أمدنا القرآن بالفاظ شتى لم يوفق ماسينيون في حصرها كالذكر والسر والقلب والتجلي والاستماع والاستقامة والاستواء والاصطفاء والصدق والاخلاص والرضى والنفس المطمئنة والراضية واللوامة والامارة والسكينة والتوبة واليقين والنور والحق وقد أغفل الكثير مما استعمله القرآن كالايمان وحق اليقين والامانة والروح والقدس والمقام والشاهد والجمع والمعرفة كما يظهر ذلك جليا من اللائحة الابجدية للكلمات الصوفية المقتبسة من القرآن والتي عملنا على تجريدها وترتيبها للتدليل

---

(1) طبقات ابن السبكي (ج 3 ص 239) التقط هذه التعاريف أبو منصور عبد القاهر البغدادي ورتبها تبعا لاصحابها حسب الحروف الهجائية .
وقد عرف الجرجاني التصوف بانه الوقوف مع الآداب المرعية ظاهرا فيرى حكمها من الظاهر في الباطن وباطنا فيرى حكمها من الباطن في الظاهر فيحصل للمتأدب بالحكمين كمال .

على أن القرآن هو المصدر الجوهرى للمصطلح الصوفى وتضاف الى هذه المصطلحات ما تطورت معانيه عن طريق النحاة كالضمير والملحق والاشارة والمجاز والاقتران او المتكلمين كالصقل والعدل والتوحيد والعرض والصفة والصورة والقديم والثبوت والوجود او ما فى الاثر كسبحات الوجه والذرة البيضاء والكبريت الاحمر والاسم الاعظم والديك الابيض وعنقاء مغرب ومقلب القلب وسبحات الجلال والقطبانية والغوثية والفردية والابدال والاوتاد والنجباء والنقباء أو ما تسرب الى العربية من دخيل يونانى أو فارسى او أرامى منذ العهد الجاهلى (كالافلاك والاكوار والازياج والمهرجان والدستور والكناش والترياق والديوان فى نظر من يرجع هذه الكلمات أو الافكار الى أصول أجنبية .

ذلك ان للفكر حظا مشاعا بين البشرية يؤدى الى وقوع الحافر على الحافر وقد أشار ماسينيون (2) الى صدف غريبة بين الهندوسية والقبالية والمانوية من جهة ونظريات الجيلى والحلاج من جهة أخرى فالخال فى السنسكريتية هى النقطة الاصلية عند الحلاج والانسان القديم عند المانوية هو آدم قدمون عند القبالية والانسان الكامل عند الجيلى والاسم الاعظم عند الصوفية هو shem hamphorash عند العبرانيين وعمود الوسط فى التلمود هو عمود الصبح لدى المانوية وعمود النور عند التسترى وفكرة «المريد الذى يكون مثل الميت بين يدى غسيله» هو ما عبر عنه بعد ذلك القديس فرانسوا داسيز وانياس دولويولا St François d'Assise et St Ignace de Loyola وطريقة احتجاج الغزالى « Perindeac cadaver »

لفكرة البعث هى ما يسمى عند الغربيين Le pari de Pascal حيث عبر عنه الفيلسوف الفرنسى بنفس الاسلوب والتصوير .

وقد أكد ماسينيون (3) دحضا لنظرية التأثير الايرانى الى أنه ما دامت هنالك نفوس شاعرة مخلصة فان انبثاقاتها واشعاعاتها لا يمكن أن تنحصر فى جنس دون آخر وفى لغة غير أخرى فهى ظاهرة انسانية لاتحدها الحواجز المادية فما زعمه Friedrich Delitzch من عدم أهلية الساميين فى الفنون والعلوم عامة ورده الى أصل آرى كل الديانات السامية وانسياق أمثال . فى أعقابه كل ذلك ناتج عن تعميم ما يجب أن يخصص Renan, P. de Lagarde, Blochet et Browne (كالهندسة والترقيم والفنون المعدنية والرسوم الزهرية والسلم الموسيقى والقصص) فالمذهب الشعبى الذى يوهم بانه فارسى النزعة لم ينشره فى فارس سوى عرب خلص تواردوا من الكوفة فى حين أن بعض الايرانيين كالاكراد والافغان ظلوا دائما خصوما للشيعة وقد أكد ماسينيون ان اللوائح التى جردت باسماء كبار مفكرى الاسلام ذوى الاصل الفارسى نظرا لانتسابهم الى احدى مدن فارس ليست سوى صورة خادعة لان معظم هؤلاء لم يفكروا ولم يكتبوا الا بالعربية وما أكثر ما يردد «دعاة الايرانية» أسماء أمثال الفارابى وابن سينا والبخارى والزمخشرى ضمن الامجاد الوطنية التترية ومن عاش مع مصنفات هؤلاء أدرك روحهم العربية كسيبويه فى النحو والاصفهانى فى المأثورات العربية Folklore والطبرى والفخر الرازى فى التفسير .

ومن عجز ـ كما يقول ماسينيون ـ عن تذوق قوة الايجاز الفياض فى اللغات السامية ظن أنها غير صالحة للتعبير الصوفى مع انها لغات الوحى القدسى ولغات كثير من الانبياء ولغات الزبور الذى تعتبر مزاميره من أعظم ما انتشر من النصوص الصوفية على أن التبشير بالمسيحية وبالاسلام قد تحقق من خلال جميع اللغات حتى المجردة منها من العناصر النحوية كاللغة الصينية وجدير بالذكر أن التصوف يستغنى اكثر من التبشير عن العبارات الطنانة وعن حركة الترييح والتدوير فى الاسلوب لان لغة القلوب تجد مسلكها المعبد السهل فى غير عناء (4)

ونحن نقدم اليوم معجما لمصطلحات القرآن الصوفية مرتبة حسب الحروف الهجائية وقد قمنا بجردها مباشرة من نص القرآن لنستخلص منها الدليل الحى ـ خلافا لما زعمه كثير من المستشرقين ـ على أن القرآن هو المنبع الجوهرى للفكر الصوفى وان ما انتشر فى كتب الصوفية من مفاهيم ومدركات ليس سوى انبثاقة

---

(2) فى كتابه «أصول المعجم الفنى فى التصوف الاسلامى » ـ طبعة جديدة 1954 باريس ص 57 .

(3) المصدر اعلاه ص 64 .

(4) لاحظ ماسينيون هنا أيضا ان كلا من النحووادب لهجات الاقاليم المحتلة لم يقاوم الفاتح العربى ولم يحتفظ العالم الاسلامى خلال جيل او جيلين باكثر من محررين باليونانية والفارسية لسجلات الخراج اى المدة التى تكونت فيها أفواج المحررين الجدد باللغة العربية .

للفيض الروحي المنبعث من ثنايا التنزيل الـــذى تشعبت معطياته تبعاً لمقتضيات التأويلات الباطنية عند البعض او الوقوف عند ظاهر النص عند الآخرين .

وقد تتجلى بعض المصطلحات نابية عـــن الاطار الصوفي ولكنك اذا طالعت كتب المصطلحات عند القوم ككشاف اصطلاحات الفنـــون للتهانـــوى وتعريفات الجرجاني وكتاب الاملاء في اشكالات الاحيـاء لمست سعة هذا المجال الذى تنفسح جنباتـــه لادق خلجـات النفس وشتى تضاعيف الحياة وقد استعمل الصوفية الملآت من الكلمات القرآنية للتعبير عن مفاهيم رمزيـة وأشكال مبتدعة نضرب لذلك أمثلة حية مـن الالفاظ والتعابير الآتية : (5)

- البقرة كناية عن النفس اذا استعدت للرياضة (هـ)
- أم الكتاب بمعنى العقل الاول (ج)
- الافق الاعلى نهاية مقام الروح وهـــى الحضرة الالهية (ج)
- الخضر يعبر به عن البسط (عح)
- الشجرة الانسان الكامل (عح) .
- الواقعة ما يرد على القلب من ذلك العالم بأى طريق كان من خطاب او مثال (عح)
- قاب قوسين وهو أحدية عين الجمع الذاتية (ج)
- الغراب هو الجسم الكلى (ج)
- الضياء رؤية الاغيار بعين الحق (ج)
- الران الحجاب الحائل بـــين القلب وعـــالم القدس (ج)
- نون والقلم : نون العلم الاجمالى فـى الحضرة الاحدية والقلم حضرة التفصيل (ج)
- الحجاب انطباع الصور الكونية فى القلب المانعة لقبول تجلى الحق (ج)
- الصعق الفناء في الحق عند التجلى الذاتى (ج) .
- مجمع البحرين هو النور المحمدى (هـ)
- البرزخ الروح الاعظم وعالم المثال (هـ)
- حق اليقين عبارة عن فناء العبد فى الحق (ج) .

(راجع المعجم الصوفى فى القرآن فى قسم المعاجم)

---

(5) نرمز بالهـاء الى التهانـوى صاحب « كشاف اصطلاحات الفنون» وبالجيم للجرجانى صاحب التعريفات و عح لابن عربى الحاتمى صاحب اصطلاحات الصوفية وبالغين للغزالى صاحب «الاملاء فى اشكالات الاحيا» .

المـــراجع

- تعريفات على بن محمد الجرجانى ـ المطبعـــة الخيرية بالقاهرة (عام 1306) وتليه رسالة «اصطلاحات الصوفية» الواردة فى كتاب الفتوحات المكية لابن عربى الحـــاتمى .
- كتاب الاملاء فى اشكالات الاحياء .

على هامش الاحياء للغزالى ـ الجزء الاول ص 49 . طبعة مصر (مكتبة عيسى الحلبى) .

- كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى (طبعـــة القاهرة 1382ـ1963)

— Eloge du vin (Al Khamrya d'Omar Ibn Al Faridh).
Emile Dermenghem - Paris 1931.

— Essai sur les origines du lexique technique de la Mystique musulmane.
Louis Massignon - Paris 1954.

— Vie des Saints musulmans.
Emile Dermenghem - Alger.

— Parole donnée.
Louis Massignon - Paris - Juliard 1962.

— La pensée religieuse d'Avicenne.
Louis Gardet - Paris 1951.

— L'Imagination créatrice dans le Soufisme d'Ibn Arabi.
Corbin - Paris 1958.

— Diwan d'El Hallaj.
Louis Massignon. Journal Asiatique - Janvier-mars 1931.

— El Hallaj, martyr mystique de l'Islam.
Louis Massignon - Paris 1922.